حسن الابتداء والخروج والانتهاء وعلاقة ذلك بوحدة القصيدة

للدكتور / عبد البارى طه سعيد

« مدخـــل الـى الدراســـة »

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسـول الله وعلى آلـــه وصـــحبه ومـــن والاه ... « أمـا بعـــد »

فقد عنى البلاغيون والنقاد بتبيان المواطن التى يجمـــل بالأديب ـ ولا سيما الشاعر ـ أن يبالغ فى تجويدها وصقلها ومنحها مزيدا مـــن اعتنائه ، ومن تلك المواطن بل من أولها وأعلاها فاتحة القول وخاتمته ومعقد الازار منه ـ ان صح التعبير ـ ونعنى به ما يسمى بحسن الخروج أو حسن التخلص .

وهذه الدراسة تحاول تعرف آراء بعض البلاغيين والنقاد حول هذه المواطن الثلاثة وعلاقتها بوحدة القصيدة ، كما أنها تحاول الانتقال من الدراسة النظرية الى الدراسة التطبيقية ، وهذا انما ايتاتى بمعايشـــة قصيدة متكاملة أو أكثر لشاعر من الشعراء الاوائل الذين ينبغى النظـر والتدقيق فى شعرهم لان السلائق الصحيحة كانت لا تزال مسعفة لهم ، وقد وقع اختيارنا على « أبى تمام » فهو من ابرز شعراء العربية اهتماما باللغة وبالبلاغة ، وهو من هو فى الميدان الذى تحاول هذه الدراســـة كشف النقاب عن بعض أسراره فها هو ذا ابن رشيق يقول عنه (١) :

---

(١) ينظر العمدة لابن رشيق ٢٣٣/١ تحقيق / محيى الدين ـ طبعة دار الجيل ـ بيروت .

« وكان أبو تمام فخم الابتداء ، له روعة ، وعليه أبهة ، كقوله :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار (٢)

وقوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب (٣)

وقوله :

أصغى الى البين مغترا فلا جبرما (٤)

وقوله :

يا ربع لو ربعوا على ابن هموم (٥)

والغالب عليه نحت اللفظ ، وجهارة الابتداء ... » .

وها هو ذا أبو هلال العسكرى ينتقى كثيرا من أبيات أبى تمام ويعدها من أحسن أنواع الخروج عنده وهو الذى سماه « الخروج المتصل » (٦) وقد فعل ابن الأثير مثل ذلك أيضا (٧) وفى حسن الختام ذكر له البلاغيون والنقاد كثيرا من ختام قصائده ...

---

(٢) ديوان أبى تمام ١٩٨/٢ بشرح التبريزى تحقيق / محمد عبده عزام - طبعة دار المعارف .

(٣) المصدر نفسه ٤٠/١ .

(٤) المصدر نفسه ١٦٥/٣ وعجز البيت : أن النوى أسأرت فى قلبه لمما

(٥) المصدر نفسه ٢٦١/٣ وعجز البيت : مستسلم لجوى الفراق سقيم

(٦) ينظر « الصناعتين » لابى هلال العسكرى ص ٤٧٤ وما بعدها طبعة الحلبى .

(٧) ينظر « المثل السائر » لابن الاثير تعليق د . احمد الحوفى ، د . بدوى طبانه ١٢٢/٣ وما بعدها .

ويتحدث أحد الباحثين عن أبى تمام ويحلل بعض أشعاره ثم يقول :

« وهذا الوصل بين الممدوحين والطبيعة سواء فى هذه القصيدة أو سابقتها يجعلنا نحس فى وضوح عنده بوحدة القصيدة وكأنها عمل فنى نام لا يزال بعضه يتولد من بعض ... » (٨) .

ولعل هذه الدراسة تستطيع كشف النقاب عن بعض الاسرار لهذه المواطن الثلاثة « حسن الابتداء والخروج والانتهاء » وعلاقة ذلك بوحدة القصيدة .

وهى محاولة والتوفيق من الله عز وجل .

« وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » .

أولا : آراء بعض البلاغيين والنقاد :

يقول البلاغيون : (٩) « ينبغى للمتكلم شاعرا كان أ وكاتبا أن يتأنق ... فى ثلاثة مواضع من كلامه حتى تكون تلك المواضع الثلاثة « أعذب لفظا » بأن يكون فى غاية البعد من التنافر والثقل « وأحسن سبكا » بأن يكون فى غاية البعد من التعقيد والتقديم والتأخير الملبس ، وأن تكون الألفاظ متقاربة فى الجزالة والمتانة والدقة والسلاسة ، وتكون المعانى مناسبة لألفاظها من غير أن يكتسى اللفظ الشريف المعنى السخيف

---

(٨) ينظر « تاريخ الادب العربى » للدكتور / شوقى ضيف ٣/٢٨٢ طبعة دار المعارف .

(٩) ينظر « شروح التلخيص ٤/٥٢٩ وما بعدها ، والمطول ص ٤٧٧ وما بعدها ، وبغية الايضاح ٤/١٤٨ وما بعدها ، والاطول ٢/٢٥٦ وما بعدها .

أو على العكس بل يصاغان صياغة تناسب وتلاؤم « وأصح معنى » بأن يسلم من التناقض والامتناع ومخالفته العرف والابتذال ونحو ذلك ، ومما تجب المحافظة عليه أن تستعمل الألفاظ الدقيقة فى ذكر الأشواق ووصف أيام البعاد وفى استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأمثال ذلك . وقد بين البلاغيون هذه المواطن الثلاثة بأنها :

« الابتداء ، والخروج ، والانتهاء » .

الأول : الابتـــداء :

« لأنه أول ما يقرع السمع فان كان عذبا حسن السبك صـــحيح المعنى أقبل السامع على الكلام فوعى جميعه والا أعرض عنه ورفضـــه وان كان الباقى فى غاية الحسن ... » (١٠) . ومن ثم فانهم كانوا يذهبون الى أن « الشعر قفل أوله مفتاحه » (١١) .

« وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء ، فقال : من يتفقد الابتـــداء والمقطع » (١٢) .

« والابتداء أول ما يقع فى السمع من كلامك ، والمقطع آخـــر ما يبقى فى النفس من قولك فينبغى أن يكونا مونقين » (١٣) .

« وقالوا : ينبغى للشاعر أن يحترز فى أشعاره ، ومفتتح أقواله ، مما يتطير منه ، ويستجفى من الكلام كالمخاطبة بالبكاء ، ووصف اقفار الديار ، وتشتيت الالاف ، ونعى الشباب ، وذم الزمان ، لا سيما فـــى

---

(١٠) ينظر المطول ص ٤٧٨ .

(١١) ينظر العمدة لابن رشيق ١/٢١٨ .

(١٢) ينظر « الصناعتين » لابى هلال ص ٤٥٤ .

(١٣) المصدر نفسه ص ٤٥٥ .

القصائد التى تتضمن المدائح والتهانى ...» (١٤) .

« دخل ذو الرمة على عبد الملك بن مروان فاستنشده شيئا من شعره فأنشده قصيدته :

ما بال عينيك منها المـاء يتسـكب (١٥)

وكانت يعين عبد الملك ريشة ، وهى تدمع أبدا ، فتوهم أنـه خاطبه أو عرض به ، فقال : وما سؤالك عن هذا يا جاهل ؟!! فمقتـه وأمر باخراجه .

وكذلك فعل ابنه هشام بأبى النجم وقد أنشده فى أرجوزة :

والشمس قد كادت ولما تفعل كأنها فى الأفق عين الأحـول

وكان هشام أحول ، فأمر به فحجب عنه مدة ، وقد كان قبل ذلك من خاصته : يسمر عنده ويمازحه » (١٦) .

« وروى أن مقاتل الضرير أنشد للداعى العلوى قصيدته التى أولها :

موعـد أحبـابك بالفرقـة غـد .

فقال له الداعى : بل موعد أحبابك ولك المثل السوء » (١٧) .

« وقد أنكر الفضل بين يحيى البرمكى على أبى نواس ابتداءه :

أربع البلى ان الخشـوع لبادى عليك وانى لم أخنـك ودادى

---

(١٤) المصدر نفسه ص ٤٥١ .

(١٥) تتمته « كأنه من كلى مفرية سرب » ، وينظر سر الفصـاحة لابن سنان الخفاجى ص ١٧٥ طبعة صبيح .

(١٦) ينظر العمدة ١/٢٢١ وما بعدها .

(١٧) ينظر الاشارات والتنبيهات فى علم البلاغة تصـنيف محمد بن على بن محمد الجرجانى ـ تحقيق د . عبد القادر حسين ص ٣٢١ .

قال : فلما انتهى الى قوله :

سلام على الدنيا اذا ما فقـــدتم بنى برمك من رائحين وغـاد

وسمعه استحكم تطيره ، وقيل : انه لم يمض أســـبوع حتى نكبوا » (١٨) .

ولما أنشد الأخطل عبد الملك بن مروان قصيدته التى أولها :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا (١٩)

قال له عند ذلك : لا بل منك ، وتطير من قوله فغيرها ذو الرمة وقـــال :

خف القطين فراحوا اليوم أو بكروا (٢٠)

وحكى أنه لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان جلس فيـــه ، وجميع أهله وأصحابه ، وأمرهم أن يخرجوا فى زينتهم ، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم ، فاستأذن اسحاق بن ابراهيم الموصلى فى الانشاد ، فأذن له ، فأنشد شعرا حسنا أجاد فيه ، الا أنه استفتحه بذكر الديـــار وعفائها فقال :

يا دار غيرك البلى ومحـــاك يا ليت شعرى ما الذى أبـــلاك

فتطير المعتصم بذلك ، وتغامز الناس على اسحاق بن ابراهيـــم كيف ذهب عليه مثل ذلك مع معرفته وعلمه وطول خدمته للملوك ، ثم

---

(١٨) ينظر « الصناعتين » ص ٤٥١ ، وينظر البديع فى نقد الشـــعر لاسامة بن منقذ ص ٢٨٥ وغيرهما . وينظر الموشح للمرزبانى ص ٢٤٨ - طبعة المطبعة السلفية .

(١٩) الشطر الثانى « وأزعجتهم نوى فى صرفها غير » .

(٢٠) ينظر « المثل السائر ٣/٩٨ .

أقاموا يومهم وانصرفوا ، فما عاد منهم اثنان الى ذلك المجلس ، وخرج المعتصم الى « سر من رأى » وخرب القصر (٢١) والسبب فى كل ما مضى واضح وهو أن الشاعر لم يتحرز فى أشعاره ، ومفتتح أقواله مما يتطير منه ...

« فاذا اراد الشاعر أن يذكر دارا فى مديحه فليذكر كما ذكر أشجع السلمى حيث قال :

قصر عليه تحية وسلام خلعت عليه جمالها الأيام

وما أجدر هذا البيت بمفتتح شعر اسحاق بن ابراهيم الذى أنشده المعتصم ، فانه لو ذكر هذا أو ما جرى مجراه لكان حسنا لائقا » (٢٢) .

واذا كان الباعث على تجويد الابتداء استدراج المتلقى كيما يحط رحاله فيستمع بقلب مفتوح وعقل حصيف الى بقية القصيدة فلا يعنى هذا أنهم يقبلون من المبدع أن يتساهل فى صنعته فى سبح القصيدة وعبر شاطئيها (الفاتحة والخاتمة) ولذا نراهم يشيرون الى سوء أثر الفاتحة الشوهاء على القصيدة فى بقيتها ، ولم يشيروا الى استحسان أثر الفاتحة الحسناء على القصيدة الشمطاء فى بقيتها ، فحسن الفاتحة لا يغنى عن حسن البقية ، بل حسن الفاتحة عندهم يسموا اذا ما ناسب بقيتها شكلا ومضمونا .

يقول السعد (٢٣) : « وأحسنه أى أحسن الابتداء ما ناسب المقصود بأن يكون فيه اشارة الى ما سبق الكلام لأجله ليكون المبدأ مشعرا بالمقصود والانتهاء ناظرا فى الابتداء ويسمى كون الابتداء مناسبا للمقصود

---

(٢١) ينظر « المثل السائر ٣/١٠٠ ، وينظر « الصناعتين » ٤٥٢ وغيرهما .

(٢٢) ينظر « المثل السائر » ٣/١٠٠ .

(٢٣) ينظر « المطول » ص ٤٧٨ وما بعدها .

« براعة الاستهلال » .... كقول أبى تمام حين يهنىء المعتصم بالله فى فتح عمورية وكان أهل التنجيم زعموا أنها لا تفتح فى ذلك الوقت :

السيف أصـــدق أنبـــاء من الكتب
فى حدة الحـد بين الجـــد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصـحائف فى
متونهن جلاء الشك والريب » (٢٤)

وهذا المفتتح يعد من براعة الاستهلال لانه أشعر بالمقصود من أول وهلة فهو قد قال هذه القصيدة يمدح المعتصم ويذكـــر حـــريق عمورية وفتحها فاستمد المطلع من وحى الاحداث التى تمت ومن وحى المناسبة نفسها ومعروف أن المنجمين قد قالوا : ان عمورية لن تفتح فى هـــذا الوقت .... ولكن المعتصم بالله أصر على فتحها واستخدام الســـيف فصدق . والملاحظ أن أبا تمام هنا قد طابق طباقا معنويا بين الســـيف وصدقه وبين كتب المنجمين وكذبها فأحسن فى هذا الطباق المعنـــوى المستمد من وحى المناسبة كل الاحسان .

وفى البيت الثانى أتى بجناس مقلوب بين : « الصـــــفائح » و « الصحائف » وكأنى به يعبر عن الموقف وأن سيف الخليفة قد قلب أقوال المنجمين . والأهم من كل هذا أن مطلع القصيدة ارتبط ارتباطا وثيقا بالموضوع الذى أنشئت من أجله .

ومما يدخل فى هذا الباب « براعة الاستهلال » قول أبى تمـــام فى مطلع قصيدته التى قالها يمدح المعتصم ويذكر أمر « الأفشين » :

الحـــق أبلج والســـيوف عـــوار
فحـذار من أســـد العـرين حـــذار

---

(٢٤) ديوان أبى تمام ١/٤٠ ، الحد الاول : السيف والحد الثانى الذى يفصل بين الشيئين الصفائح . : السيوف العراض .

ملك غـــدا جـــار الخـــلافة منكم

والله قد أوصى بحســن الجار (٢٥)

والأفشين هو : خيذر بن كاوس فارسى الاصل قربه المعتصم وبوأه مكانة عالية وبخاصة بعد أن قضى على « بابك الخرمى » ولكنه قد ظهر للمعتصم أن « الأفشين » هذا يكيد للاسلام وللخلافة فسجنه المعتصـــم وقد مات فى سجنه سنة ٢٢٦ هـ فأخذ وصلب على باب العامة ثـــم أحرق (٢٦) .

ولم يبدأ أبو تمام القصيدة بالبكاء على الاطلال أو بالغزل مما هـو مشهور فى بدايات القصائد العربية منذ الشعر الجاهلى ولكن الذى يوحى اليه بالبداية القوية هو الموضوع نفسه فالافشين قد صلب وأحرق على باب العامة وأصبح حديث كل الناس فالشاعر ليس فى حاجة الى مقدمة طويلة يجذب بها الانتباه ولكنه يقول مباشره :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

فهو يصور الحق بأنه واضح لا لبس فيه ، ويجعل السيوف مستعدة للدفاع عنه .

فهو هنا ابتدأ بمعنى جليل فخم هو الحق الذى تسانده القـــوة الحاسمة المعدة لحمايته ، وكلمة « عوارى » تعنى أن السيوف قد سلت من أغمادها وأن القوة الحارسة للحق حارسة يقظة فليس الحق فى يد ضعيفة يضعف بضعفها ، وليست القوة فى يد أخرق تبغى وتظلم ، وانما يتساند هذان الوصفان الجليلان فيكون الحق عاصما للقوة وحجازا لها من

---

(٢٥) ديوان أبى تمام ١٩٨/٢ وما بعدها ـ تحقيق عزام .

(٢٦) ينظر « أبو تمام الطائى للبهبيتى » ١٥٤ .

البغى ، وتكون القوة بدورها تزيد الحق هيبة وجلالا ، ويجعل له مكانة وسلطانا .

ويكرر المعنى الذى يريده وهو التحذير من عصيان الخليفة « المعتصم » ومخالفة أمره ويأتى بأسلوب استعارى فيه تصوير جميل فيستعير كلمة « الاسد » للخليفة المعتصم ، ويصور الملك أو الخلافة بالعرين ، ويصور الخليفة بحامى هذا العرين « الاسد » ...

كل هذا وغيره يأتى فى بيت واحد تبدأ به القصيدة مباشرة فعبر المطلع تعبيرا واضحا عن الموضوع الذى أنشئت له القصيدة فاستحسنه القدماء والمحدثون وقالوا عنه : « انه ابتداء فخم ، له روعة ، وعليه أبهه » (٢٧) وتستأنس هنا بما يقوله ابن الاثير (٢٨) : « وحقيقة هذا النوع أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالا على المعنى المقصود من هذا الكلام ان كان فتحا ففتحا ، وان كان هناء فهناء أو كان عزاء فعزاء ، وكذلك يجرى الحكم فى غير ذلك من المعانى . وفائدته أن يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به ، ولم هذا النوع ؟

والقاعدة التى يبنى عليها أساسه أنه يجب على الشاعر اذا نظم قصيدا أن ينظر ، فان كان مديحا صرفا لا يختص بحادثة من الحوادث فهو مخير بين أن يفتتحها بغزل أو لا يفتتحها بل يرتجل المديح ارتجالا من أولها ....

وأما اذا كان القصيد فى حادثة من الحوادث كفتح معقل أو هزيمة جيش أو غير ذلك فانه لا ينبغى أن يبدأ فيها بغزل ، وان فعل ذلك دل على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية ، أو على جهله وضع الكلام فى مواضعه » .

---

(٢٧) ينظر « العمدة » لابن رشيق ١/٢٣٣ .
(٢٨) ينظر « المثل السائر » ٣/٩٦ وما بعدها .

ويقول ابن الاثير (٢٩) : « ومن محاسن الابتداءات التى دلت على المعنى من أول بيت فى القصيدة ما قرأته فى كتاب الروضة لابى العباس المبرد ، فانه ذكر غزوة غزاها الرشيد هارون رحمه الله فى بلاد الروم ، وأن نقفور ملك الروم خضع له وبذل الجزية ، فلما عاد عنه واستقر بمدينة الرقة وسقط الثلج نقض نقفور العهد ، فلم يجسر أحد على اعلام الرشيد ، لمكان هيبته فى صدور الناس ، وبذل يحيى بن خالد للشعراء الاموال على ان يقولوا أشعارا فى اعلامه ، فكلهم أشفق من لقائه بمثل ذلك الا شاعرا من أهل جدة يكنى أبا محمد ، وكان شاعرا مفلقا ، فنظم قصيدة وأنشدها الرشيد ، أولها :

نقض الذى أعطيته نقفور
فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه
فتح أتاك به الاله كبير
نقفور انك حين تغدر أن تأى
عنك الامام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت
هبلتك أمك ، ما ظننت غرور

فلما أنهى الابيات قال الرشيد : أو قد فعل ؟ ثم غزاه فى بقية الثلج وفتح مدينة هرقلة .

وسبب استحسان ابن الاثير لهذا المطلع واضح من كلامه عنه . وقد تحدث ابن رشيق باستفاضة عن مذاهب الشعراء فى افتتاح القصائد (٣٠)

---

(٢٩) المصدر نفسه ٣/١٠٥ وما بعدها .
(٣٠) ينظر العمدة لابن رشيق ١/٢٢٥ وما بعدها .

والآمدى قد وازن بين كثير من ابتداءات أبى تمام والبحترى ... (٣١) .

وسنتجاوز ما كتبه البلاغيون والنقاد فى هذا لانه مشهور فى الكتب وانما ننبه الى أنهم يجعلون الهجوم على ما يريد الشاعر مكافحة وتناوله مصافحة كالوثب والبتر والقطع فتكون قصيدته بتراء كالخطبة البتراء التى لا يبتدأ فيها بحمد الله عز وجل .... فالنسيب وما شاكله فى فاتحة القصيد كالحمد له فى فاتحة الخطب (٣٢) .

وننبه الى أنه « لا خلاف بين القدماء فى أن الشعراء انما كانوا يمهدون بين أيدى قصائدهم بتلك المقدمات لكى يهيئوا الحضور ، ويملكوا عليهم أفئدتهم حتى اذا ما أخذوا فى الموضوعات الاساسية لقصائدهم ضمنوا اصغاءهم اليها واستماعهم لها ، فالمقدمة عندهم وسيلة الى غاية أخرى هى خدمة الموضوع الاساسى للقصيدة واعداد السامعين لاستقباله والانصات له » (٣٣) .

ولعل هذا وأمثاله يشهد لابى تمام بحسن الذوق لانه ترك البكاء على الاطلال والحديث عن الغزل فى القصائد التى نتعرض لعظائم الامور وفى مقدمة هذه القصائد قصيدته فى فتح عمورية وقصيدته فى احراق الافشين وقد تقدم الحديث عنهما .

ولم يقتصر هذا الاستحسان على القصائد المادحة بل تعداها الى أى قصيدة أخرى يدل مطلعها على الموضوع الذى أنشئت له .

---

(٣١) ينظر « الموازنة » للآمدى ١/٤٣٠ وما بعدها ـ طبعة دار المعارف.

(٣٢) ينظر العمدة لابن رشيق ١/٢٣١ .

(٣٣) ينظر « مقدمة القصيدة العربية فى العصر العباسى » للدكتور/حسين عطوان ص ٢٥٨ .

فعلى سبيل المثال قالوا :

« أحسن مرثية جاهلية ابتداء قول أوس بن حجر :

أيتها النفس أجملى جزعا ان الذى تحذرين قد وقعا (٣٤)

ولعل هذا الاستحسان يعود الى أن الشاعر عبر عما يكنه فى نفسه من حب لهذا المرثى ومن خشية عليه من الموت .... اما وقد نزل هذا المحذور فان نفسه قد مضت فى الحزن الى أبعد الغايات .... وهو لذلك يطلب اليها أن تتحمل المصاب فى صبر .. وقالوا : أحسن مرثية اسلامية ابتداء قول أبى تمام :

أصم بك الناعى وان كان أسمعا واصبح مغنى الجود بعدك بلقعا(٣٥)

ولعل هذا الاستحسان لأن المطلع يدل دلالة واضحة على شدة وقع النبأ على الآذان ... ويبين مدى حزن الشاعر على فقده ، ولم لا يحزن وقد مات الجود بموت المرثى ؟

وقد اختار البلاغيون والنقاد كثيرا من الابتداءات الحسنة (٣٦) .

الثانى : الخروج أو التخلص :

يعد البلاغيون والنقاد الخروج أو التخلص الموضع الثانى من المواضع الثلاثة التى ينبغى للمتكلم أن يتأنق فيها وهو :

---

(٣٤) ينظر « الصناعتين » ٤٥٣ .

(٣٥) المصدر نفسه ٤٥٣ .

(٣٦) يمكن - لمن أراد - الرجوع اليها في مواضعها من كتب البلاغة والنقد .

« الخروج مما شبب (٣٧) الكلام به أى ابتدىء وافتتح .... من نسيب أى وصف الجمال أو غيره كالادب والافتخار والشكاية وغير ذلك الى المقصود مع رعاية الملاءمة بينهما » (٣٨) .

وفى ذلك يجعل الشاعر كلامه الاول سببا الى ما تخلص اليه « فيكون بعضه آخذا برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر ، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ افراغا ، وذلك مما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه ..... » (٣٩) .

والخروج الذى تتوفر فيه هذه الصفات يسمى « الخروج المتصل » أى أنه اتصل بما قبله وارتبط به ارتباطا وثيقا فكان بعضه آخذا برقاب بعض وكان الكلام كله كأنما أفرغ افراغا واحدا ....

ومن البديع فى هذا الباب ـ كما يقول ابن الاثير ـ (٤٠) قول أبى نواس من جملة قصيدته المشهورة التى أولها :

« أجارة بيتينا أبوك غيور »

فقال عند الخروج الى ذكر الممدوح :

تقول التى من بيتها خف مركبى
عزيز علينا أن نراك تسير

---

(٣٧) قال الواحدى « معنى التشبيب ذكر أيام الشباب واللهو والغزل وذلك يكون فى ابتداء قصائد الشعر فسمى ابتداء كل أمر تشبيبا وان لم يكن فى ذكر الشباب » نقله السعد فى المطول ص ٤٧٩ .

(٣٨) ينظر « المطول » ص ٤٧٩ .

(٣٩) ينظر المثل السائر ١٢١/٣ ، وينظر الجامع الكبير لابن الأثير ص ١٨١ .

(٤٠) ينظر « المثل السائر » ١٢٤/٣ .

أمـــا دون مصر للغنـــــى متطـــلب

بلى ان اســـباب الغنـــــى لكثير

فقلت لهـــا واســـــــتعجلتها بوادر

جرى فجرى فى جريهن عبير (٤١)

ذرينى اكثر حاســـــديك برحـــلة

الى بلـــد فيهـا الخصـــيب أمير »

فهذه القصيدة قالها « ابو نواس » فى مدح الخصيب بن عبد الحميد أمير مصر وقد نسج التخلص الحسن من المقدمة الى الموضوع فى حوار لبق بينه وبين ابنته وكان ذكر هذه البنية مما اكسب الحوار شجوا شعريا رفيعا لانها تريد أن تكفه عن الرحلة البعيدة وتقول له : اما دون مصر للغنى متطلب والحال أن دموعا تبتدرها تجرى فيجرى اثرهن عبير اى اختلط دمعها بعبيرها وهذه صورة شعرية حسنة وشجية ، ثم يقول لها بذكاء الشعراء :

ذرينى اكثر حاسديك برحلة الى بلد فيها الخصيب أمير

فيمنيها الامانى ويداعبها من حيث هى انثى بين اتراب ينظـــرن اليها ويحسدنها على ما هى فيه من ثروة وهكذا يجفف دموعها . ويرشد الى شدة تمسكها به بقوله « ذرينى » وكانها قابضة عليه ....

وفى هذا الاطار الرفيع ينتقل من حيث لا ندرى انه ينتقـــل ، وتتشابك أطراف الكلام من حيث لا ندرى أنها تتشابك ، ويتآلف المختلف من حيث لا نشعر انه مختلف ....

---

(٤١) بوادر : دموع مستبقات ، عبير : رائحة ذكية ، اى اختلط دمعها بعبيرها .

ولهذا وغيره استحسن البلاغيون والنقاد هذا التخلص وعدوه من التخلص البديع ٠

ومن حسن التخلص قول مسلم بن الوليد :

اذا شـــئتما أن تســـــقيا مدامـــــة
فـــلا تقتلاها ، كـــل ميت محـــرم
خلطنـــا دمـــا من كرمة بدمـــــائنا
فأثر فى الالـــوان منـــا الـــدم الدم
ويقظى ثنيت النـــوم فيهـــا بسـكرة
لصهباء صرعاها من الســـكر نـــــوم
فمن لامنى فى اللهو أو لام فى الندى
أبا حسين زيد الندى فهو ألوم (٤٢)

فهو قد بدأ قصيدته بداية معروفة مشهورة فتحدث حديث الشعراء عن الخمر واللهو ٠٠٠

وفى أثناء حديثه ينتقل الى مدح الممدوح بالكرم انتقالا تتشـابك فيه أطراف الكلام ويتآلف المختلف من حيث لا نشعر أنه مختلف فأين اللهو من الكرم ؟ أين الثرى من الثريا ؟

شتان ما بينهما ٠٠٠٠ ولكن الشاعر بطريقة الشعراء المجودين جعل كلامه الاول سببا الى ما تخلص اليه :

فمن لامنى فى اللهو أو لام فى الندى أبا حسن زيد الندى فهو ألوم

ولعل هذا الربط جعل البلاغيين والنقاد يستحسون هذا التلخص ٠

---

(٤٢) ينظر « الصناعتين » لابى هلال ٤٧٦ ٠

ومن التخلص البديع قول أبى تمام فى مدح عبد الله بن طاهر :

يقول فى قومس صحبى وقد أخذت منا السرى وخطا المهرية القود
أمطلع الشمس تبغى أن تـؤم بنـا فقلت كلا ولكن مطلع الجود (٤٣)

وهذان البيتان من بديع ما يأتى فى هذا الباب ونادره فالشاعر قد سحر الصحاب واستولى على قلوبهم وعقولهم وان من الشعر لسحرا فهم يقولون لأبى تمام « أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا » ؟

فيجيب : كلا ولكن مطلع الجود ... وهو الممدوح « عبد الله بن طاهر » .

ومن التخلصات المختارة التى تدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه وطول باعه واتساع قدرته تخلص أبى تمام من وصف الربيع الى مـــدح الخليفة وربطه ربطا قويا بين هذا وذاك فالممدوح صاحب خلق يقاس به زهر الربيع مع الفارق فزهر الربيع يذبل بمضى المدة وخلـــق الممدوح يزداد مع الايام حسنا وذلك فى قصيدته التى قالها فى مدح المعتصـــم أو المأمون والتى افتتحها بمقدمة جديدة فقـــد تناسى بكاء الاطـــلال والخمريات وبدأ بحديث الجمال فى الطبيعة متخذا من الربيع ومظاهره أداة لغرضه معتمدا على التصوير فقال (٤٤) :

رفت حـــواشى الدهـــر فهى تمرمر
وغـــدا الثرى فى حليـــه يتكســـر
نزلت مقـــدمة المصـــيف حميـــدة
ويـــد الشـــتاء جديدة لا تكفـــر

---

(٤٣) ديوان أبى تمام ١٣٢/٢ « قومس » بلد بين العراق وخراسان وطبرستان بالقرب من أصفهان - وينظر فى هذين البيتين المثل الســـائر ١٢٢/٣ وشروح التلخيص ٥٣٦/٤ ، والمطول ٤٨٠ ، والأطول ٢٥٨/٢ .
(٤٤) ديوان أبى تمام ١٩١/٢ .

ويستمر فى وصف الربيع وأيامه ثم يخرج من ذلك خروجا حسنا الى وصف الممدوح فيقول :

خلق أطل من الربيع كأنه
خلق الامام وهدية المتيسر
فى الارض من عدل الامام وجوده
ومن النيات الغض سرج تزهر
تنسى الرياض وما يروض فعله (٤٥)
أبدا على مر الليالى يذكر

وعن هذا التخلص يقول ابن الاثير (٤٦) : « وهذا من الطف التخلصات وأحسنها » .

ومما جاء من التخلصات الحسنة قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته الدالية التى أولها : « عواذل ذات الخال فى حواسد » (٤٧) :

وأورد نفسى والمهند فى يدى
موارد لا يصدرن من لا يجالد
ولكن اذا لم يحمل القلب كفه
على حالة لم يحمل الكف ساعد
خليلى انى لا أرى غير شاعر
فلم منهم الدعوى ومنى القصائد
فلا تعجبا ان السيوف كثيرة
ولكن سيف الدولة اليوم واحد

---

(٤٥) فى المثل السائر « وما يروض جوده » ٣/١٢٢ .
(٤٦) المصدر نفسه ٣/١٢٢ .
(٤٧) ديوان المتنبى بشرح العكبرى ١/٢٦٨ وتتمة البيت : « وان ضجيع الخود منى لماجد » .

ويعقب ابن الاثير على هذا التخلص الحسن فيقول : « وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض ، الا ترى الى الخروج الى مدح الممدوح فى هذه الأبيات كأنه أفرغ فى قالب » (٤٨) .

الى غير ذلك من التخلصات الحسنة التى اختارها البلاغيون والنقاد - وهى ميسرة لمن أراد الرجوع اليها - ، الا أننا ننبه الى أن هذا هو مذهب المحدثين فى الخروج من معنى الى معنى أما الجاهليون والمخضرمون فقد كان لهم مذهب معين أشار اليه ابن رشيق حين قال (٤٩) :

« وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب فى الخروج الى المدح بل يقولون عند فراغهم من نعت الابل وذكر القفار وماهم بسبيله : « دع ذا » و « عد عن ذا » ويأخذون فيما يريدون ، أو يأتون بأن المشددة ابتداء للكلام الذى يقصدونه » . ومن الامثلة الموضحة قول امرى القيس :

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ذمول اذا صام النهار وهجرا (٥٠)

ويسمى هذا بالخروج المنفصل أو الاقتضاب وعنه يقول ابن الاثير :

« وأما الاقتضاب فانه ضد التخلص ، وذاك أن يقطع الشاعر كلامه الذى هو فيه ، ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ، ولا يكون للثانى علاقة بالاول ، وهو مذهب العرب . ومن يليهم من المخضرمين » (٥١) .

---

(٤٨) ينظر « المثل السائر » ٣/١٢٥ .
(٤٩) ينظر « العمدة » ١/٢٣٩ .
(٥٠) ينظر « الصناعتين » ٤٧٤ .
(٥١) ينظر « المثل السائر ٣/١٢١ .

ويقول السعد فى المطول (٥٢) :

« وقد ينتقل منه » أى مما شبب به الكلام « الى ما لا يلائمه ويسمى » ذلك الانتقال « الاقتضاب » وهو الاقتطاع والارتجال « وهو » أى الاقتضاب « مذهب العرب » الجاهلية « ومن يليهم من المخضرمين » ثم كون الاقتضاب مذهب العرب « الجاهليين » والمخضرمين لا ينافى أن يسلكه الاسلاميون وقد مثلوا له بقول أبى تمام وهو شاعر عباسى (٥٣) :

لو رأى الله أن للشيب فضلا جاورته الابرار فى الخلد شيبا

ثم انتقل من هذا الكلام الى ما لا يلائمه فقال :

كل يوم تبدى صروف الليالى خلقا من أبى سعيد غريبا

ومعلوم أنه لا مناسبة بين ذم الشيب ومدح أبى سعيد .

ثم كون الخروج المتصل مذهب المحدثين لا ينافى أن يسلكه الجاهليون والمخضرمون الا أنه ـ كما يقول أبو هلال (٥٤) ـ قليل فى أشعارهم كقول زهير :

ان البخيل ملوم حيث كان ولـ كن الجواد على علاته هرم

الثالث : الانتهاء أو الخاتمة :

يعد البلاغيون والنقاد الانتهاء أو الخاتمة الموضع الثالث من المواضع التى ينبغى للمتكلم أن يتأنق فيها يقول السعد (٥٥) :

---

(٥٢) ينظر « المطول » ص ٤٨٠ .

(٥٣) ديوانه ١٦١/١ .

(٥٤) ينظر الصناعتين ص ٤٧٥ وما بعدها .

(٥٥) ينظر « المطول » ص ٤٨١ ، وينظر « شروح التلخيص » ٥٤٣/٤ .

« وثالثها » أى ثالث المواضع التى ينبغى أن يتأنق فيها « الانتهاء » فيجب على البليغ أن يختم كلامه شعرا كان أو خطبة أو رسالة بأحسن خاتمة لانه آخر ما يعيه السمع ويرتسم فى النفس فان كان مختارا حسنا تلقاه السمع واستلذه حتى جبر ما وقع فيما سبق من التقصير كالطعام اللذيذ الذى يتناول بعد الاطعمة التفهة ، وان كان بخلاف ذلك كان على العكس حتى ربما أنساه المحاسن الموردة فيما سبق » .

ويقول أبو هلال (٥٦) :

« فينبغى أن يكون آخر بيت فى قصيدتك أجود بيت فيها ، وأدخل فى المعنى الذى قصدت له فى نظمها كما فعل ابن الزبعرى فى آخر قصيدة يعتذر فيها الى النبى صلى الله عليه وسلم ويستعطفه :

فخذ الفضيلة عن ذنوب قد خلت واقبل تضرع مستضيف تائب

فجعل نفسه مستضيفا ، ومن حق المستضيف أن يضاف ، واذا أضيف فمن حقه أن يصان ، وذكر تضرعه وتوبته مما سلف ، وجعل العفو عنه مع هذه الاحوال فضيلة ، فجمع فى هذا البيت جميع ما يحتاج اليه فى طلب العفو » .

ويقول ابن رشيق (٥٧) :

« وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها فى الاسماع ، وسبيله أن يكون محكما : لا تمكن الزيادة عليه ، ولا يأتى بعده حسن منه ، واذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه » .

---

(٥٦) ينظر « الصناعتين » ص ٤٦٤ .
(٥٧) ينظر « العمدة » ١/٢٣٩ .

وصاحب المنهاج يقول (٥٨) :

« فأما ما يجب فى المقاطع على ذلك الاعتبار وهى أواخر القصائد فان يتحرى أن يكون ما وقع فيها من الكلام كأحسن ما اندرج فى حشو القصيدة وأن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفر للنفس عما قصدت امالتها اليه أو مميل لها الى ما قصدت تنفرها عنه .... » .

واحسن انواع الانتهاء ما آذن بانتهاء الكلام ويسمى ذلك « براعة المقطع » (٥٩) كقول الشاعر (٦٠) :

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله وهذا دعاء للبرية شامل

وكقول أبى الطيب المتنبى يخاطب سيف الدولة :

فلا حطت لك الهيجاء سرجا ولا ذاقت لك الدنيا فراقا

ويعقب احد الباحثين على هذا الختام فيقول (٦١) :

« وجمال هذا المقطع فى اشعاره بأنه دعاء صادر من قلب معجب بمن يثنى عليه ، فهو بعد أن صوره فى القصيدة ، ورسم خلاله الرفيعة ، يكون من الطبيعى أن يختم ذلك بهذا الدعاء الصادر من قلب الشاعر » .

وهذا ختم للقصيدة بالدعاء وقد استحسن لانه للملوك وكما يقول ابن رشيق :

---

(٥٨) ينظر « منهاج البلغاء » لحازم القرطاجنى ص ٢٨٥ .

(٥٩) ينظر « بغية الايضاح » ٤/١٥٨ ، وينظر « شروح التلخيص » ٤/٥٤٤ .

(٦٠) هو ابو العلاء المعرى ، وقيل انه ابو الطيب المتنبى - وينظر هامش بقية الايضاح ٤/١٥٨ .

(٦١) ينظر « أسس النقد الادبى عند العرب » للدكتور /أحمد بدوى ص ٣١٤ .

« وقد كره الحذاق من الشعراء ختم القصيدة بالدعاء ، لانه من عمل أهل الضعف الا للملوك ، فانهم يشتهون ذلك .... » (٦٢) .

فان كان البيت الاخير الذى ختمت به القصيدة لا يشعر النفس بأن القصيدة قد انتهت بقى الكلام مبتورا لان النفس تظل متعلقة بالقصيدة ، راغبة فى بيان الخاتمة وفى هذا يقول ابن رشيق (٦٣) :

« ومن العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متعلقة ، وفيها راغبة مشتهية ، ويبقى الكلام مبتورا كأنه لم يتعمد جعله خاتمة : كل ذلك رغبة فى أخذ العفو ، واسقاط الكلفة ، ألا ترى معلقة امرىء القيس كيف ختمها بقوله يصف السيل عن شدة المطر :

كان السباع فيه غرقى غدية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل (٦٤)

فلم يجعل لها قاعدة كما فعل غيره من أصحاب المعلقات ، وهى أفضلها » .

« والنفس - بعد البيت السابق - لا تشعر بأن الوصف الذى أخذ فيه الشاعر قد انتهى الى غاية ، بل تترقب مزيدا من الوصف ، ومزيدا من رسم شعوره ازاء ما رأى » (٦٥) .

ويقول أحد الباحثين ذاكرا ختام معلقة امرىء القيس السابق(٦٦) :

---

(٦٢) ينظر « العمدة ١/٢٤١ .

(٦٣) المصدر نفسه ١/٢٤٠ .

(٦٤) العنصل : - بوزن قنفذ - بصل برى يعمل منه خل شديد الحموضة . الأنابيش : جماعات من العنصل تجمعها الصبيان ، ويقال الأنابيش : العروق .

(٦٥) ينظر « أسس النقد الادبى عند العرب » للدكتور/أحمد بدوى ص ٣١٤ .

(٦٦) ينظر « خاتمة القصيدة العربية » للدكتور كاظم الظواهرى - مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية - العدد السادس سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م ص ٤٦٥ .

« وقد كان الجاهليون أقل حظا فى التجويد والتفنن فى الخاتمة ، لا لعدم مقدرتهم عليه ، وانما لانهم كانوا يجرون وراء الطبع ، ويطلقون لقرائحهم العنان ، ولا يدخلون الصنعة الا قليلا ، ومع هذا فان خواتيم القصيد عندهم كانت تجرى على الشرط ولا تخالف عن القصد ، ولا سيما فى جهة الاتصال الموضوعى بسائر القصيدة ، وتحقق الغرض ، فى غير تعمل ولا افتعال ، وقد عيب على امرىء القيس ختامه معلقته بهـــذا البيت :

كان السباع فيه غرقى غدية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

فلم يجعل لها قاعدة كما فعل غيره من أصحاب المعلقات مع أنهـا أفضلها ، ونرى ابن رشيق يعتذر عنه بأن من العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متعلقة ، وفيها راغبة مشتهية ويبقى الكلام مبتورا ، كأنه لم يتعمد جعله خاتمة ، كل ذلك رغبة منه فى أخذ العفو ، واسقاط الكلفة » .

وصاحب المنهاج بعد حديثه عما يجب اعتباره فى أواخر القصائـد يقـــول :

« ومن الشعراء من يأخذ فى النقيض من هذا فلا يعتنى بالمبـــدأ ولا المقطع ، فيختم كيفما اتفق ويبدأ كيفما تيسر له ، ويعتمد هذا من يريد اعفاء خاطره ، أو من يريد أن يظهر أنه لم يعتمد الروية والتنقيح فى كلامه ، وانما أخذ الكلام اقتضابيا على الصورة التى عن له فيها أولا ، فلا يحفل بعدم التصريع ولا يبالى بوقوع خرم فى صدر البيت ان وقع له ، ليوهم بذلك أنه أعفى قريحته وأن فى قـــوته أن يقول أحســـن مما قـــال » (٦٧) .

وقد اختار البلاغيون والنقاد كثيرا من الابيات التى اشتملت على

---

(٦٧) ينظر « منهاج البلغاء » لحازم القرطاجنى ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

حسن الانتهاء نذكر منها قول امرىء القيس :

الا ان بعد العدم للمرء قنـوة وبعد الشباب طول عمر وقلبا (٦٨)

فالختام قد اشتمل على حكمة بالغة وتشبيه جيد .

ومما استحسنوه فى الختام قول تابط شرا :

لتقرعن على السن من ندم اذا تذكرت يوما بعض اخلاقى

وقالوا : « هذا البيت أجود بيت فى هذه القصيدة لصفاء لفظـه ، وحسن معناه » (٦٩) .

ومن المستحسن فى الختام أيضا قول الشنفرى فى آخر قصيدته :

وانى لحلو ان أريدت حلاوتى ومر اذا نفس العزوف أمرت

أبى لمـــا آبى قريب مقادتى الى كل نفس تنتحى فى مسرتى

« فهذان البيتان أجود ما فخر به فى هذه القصيدة » (٧٠) .

ومن الخاتمة الجيدة قول بشر بن أبى خازم فى آخر قصيدته :

ولا ينجى من الغمـــــرات الا براكاء القتال أو الفرار (٧١)

« فقطعها على مثل سائر ، والامثال أحب الى النفوس لحاجتها اليها عند المحاضرة والمجالسة » (٧٢) .

---

(٦٨) ينظر « الصناعتين » ص ٤٦٤ ، والقنوة : بالكسر وتضـــم : الكسبة من المال يقتنيه .

(٦٩) المصدر نفسه ص ٤٦٤ .

(٧٠) المصدر نفسه ص ٤٦٥ .

(٧١) البراكاء : الثبات فى الحرب والجد .

(٧٢) ينظر « الصناعتين » ٤٦٥ .

ومما استحسنوه فى الختام قول أبى نواس فى مدح المأمون :

فبقيت للعلم الذى تهدى له وتقاعست عن يومك الايام

فقد اشتمل هذا البيت على الدعاء المؤذن بالانتهاء (٧٣) .

ومن حسن الانتهاء قول أبى نواس أيضا فى مدح الحضيب :

وانى جدير اذ بلغتك بالمنى وأنت بما أملت منك جدير

فان تولنى منك الجميل فأهله والا فانى عاذر وشكور

لأن قبول العذر يقتضى ختام الكلام ويؤذن بانتهائه (٧٤) .

ومن الخاتمة الجيدة قول أبى تمام فى خاتمة قصيدته « فتح عمورية » :

ان كان بين صروف الدهر من رحم

موصولة أو زمام غير مقتضب

فبين أيامك اللاتى نصرت بها

وبين أيام بدر أقرب النسب

أبقت بنى الأصفر المرامن كاسمهم

صفر الوجوه وجلت أوجه العرب (٧٥)

وحسن الختام لان البيت الاخير فى القصيدة يفيد نهاية الفتح فيؤذن بانتهاء الكلام (٧٦) .

---

(٧٣) ينظر « بغية الايضاح » ١٥٧/٤ .

(٧٤) المصدر نفسه ١٥٧/٤ ، ١٥٨ .

(٧٥) بنو الاصفر : الروم ، والمراض صيغة مبالغة يعنى أن الصفرة لمرض لا خلقة .

(٧٦) ينظر « بغية الايضاح » ١٥٨/٤ .

« وبعـــــد »

فلعل الذى عرضناه هنا يؤكد أن لمطلع القصيدة والخروج من فاتحتها الى الغرض منها ولخاتمتها أوصافا يجب أن يحرص عليها الشـــعراء لتجويد قصائدهم ولضمان التأثير لها ولعله يؤكد أن لهذه الامور الثلاثة عيوبا يجب أن يتجنبها الشعراء خوفا أن تذهب بهاء شعرهم وتؤدى الى عدم تأثيره فى السامعين وقد رأينا أن البلاغيين والنقاد وقفوا طويلا عند هذه الامور وحكموا بالجودة على بعض الشعر لجودته فى هذه الامـور وحكموا برادءة بعضه لعيب فى أحد هذه الامور والآن ننتقل الى دراسة لنص متكامل ننتقل فيه من بيت الى بيت بل من شطر بيت الى الشـــطر الثانى بل من كلمة الى صاحبتها التى تجاورها لعل هذه الدراســـة التطبيقية تكشف بعض أسرار الجمال أو القبح فى نص متكامل ولعلهـــا تبين الى أى مدى تتحقق وحدة القصيدة فى الشعر العربى .

ثانيا : تحليل لقصيدة متكاملة :

قال أبو تمام يمدح أبا سعيد الثغرى (٧٧) :

١ ـ لا أنـــت أنت ولا الديـــــار ديـــــار
خف الهـــوى وتـــولت الأوطـــــار

٢ ـ كانت مجاورة الطلـــول وأهلهـــــا
زمنـــــا عـــذاب الورد فهى بحـــار

٣ ـ أيـــــام تدمى عينـــــه تـلك الدمى
فيهـــــا وتقمـــر لبـــــه الأقمـــــار(٧٨)

٤ ـ اذ لا صدوف ولا كنـــود اســـماهما
كالمعنـــيين ولا نـــــوار تـــــوار(٧٩)

---

(٧٧) ديوانه ١٦٦/٢ تحقيق / عزام ـ طبعة دار المعارف .
(٧٨) تدمى تلك الدمى عين ابى تمام ؛ لكثرة بكائه لمفارقتهن ، ويقمرن لبه : أى يذهبن به .
(٧٩) صدوف ، وكنود ، ونوار : كن من أهل ود ووصال الشاعر .

٥ ـ بيض فهن اذا رمقن سوافرا
صور وهن اذا رمقن صوار(٨٠)
٦ ـ فى حيث يمتهن الحديث لذى الصبا
وتحض الأسرار والأسرار(٨١)
٧ ـ اذ فى القتادة وهى أبخل أيكة
ثمر واذ عود الزمان نضار
٨ ـ قد صرحت عن محضها الأخبار
واستبشرت بفتوحك الأمصار
٩ ـ خبر جلا صدأ القلوب ضياؤه
اذ لاح أن الصدق منه نهار
١٠ ـ لولا جلاد أبى سعيد لم يزل
للثغر صدر ما عليه صدار(٨٢)
١١ ـ قدت الجياد كأنهن أجادل
بقرى درولية لها أوكار(٨٣)
١٢ ـ حتى التوى من نقع قسطلها على
حيطان قسطنطينة الاعصار
١٣ ـ أوقدت من دون الخليج لأهلها
نارا لها خلف الخليج شرار(٨٤)
١٤ ـ الا تكن حصرت فقد أضحى لها
من خوف قارعة الحصار حصار

---

(٨٠) « وهن اذا رمقن صوار » أى عيونهن تشبه عيون بقر الوحش اذا نظرت .

(٨١) « الأسرار » الاولى جمع « سر » من الحديث المكتوم ، والثانية جمع « سر » وهو النكاح ...

(٨٢) « صدار » ما يغطى به الصدر من الملابس ...

(٨٣) « درولية » مكان تصاد فيه الصقور ، أى كأنهن أجادل أوكارها بقرى درولية .

(٨٤) « الخليج » اسم بلد وقد أورد ابن المتوفى « الخليج » مكان من الروم .

١٥ - لو طاوعتك الخيل لم تقفل بهـــا
والقفـــل فيه شـــبا ولا مســـمار(٨٥)

١٦ - لمـــا لقـــوك تواكلوك واعـــذروا
هـــربا ، فـــلم ينفعهم الاعـــذار(٨٦)

١٧ - فهناك نار وغـــا تشـــب وها هنـــا
جيش لـــه لجب وثـم مغـــــار

١٨ - خشعوا لصـولتك التى هى عنـــدهم
كالمـــوت يأتى ليس فيـــه عـــار

١٩ - لمـا فصلت من الدروب اليهـــم
بعـــرمرم للأرض منـــه خـــوار(٨٧)

٢٠ - ان يبتكر ترشـــده أعلام الصـــوى
أو يسر ليـــلا فالنجـــوم منـــار(٨٨)

٢١ - فالحمة البيضـــاء ميعـــاد لهـــم
والقفـــل حتم والخليـــج شـــطار(٨٩)

٢٢ - علموا بأن الغـــزو كـــان كمثـــله
غـــزوا وأن الغـــزو منـــك بـــوار

٢٣ - فالمشى همس والنـــداء اشـــارة
خوف انتقامك والحـــديث ســـرار

---

(٨٥) « الشبا » حد الحديد الذى به يتعلق القفل « القفل » هنا اسم موضـــع .

(٨٦) « تواكلوك » معناه لما لقوك ساروا اليك وكالا ، أى كل واحد منهم يقف خلف الآخر .

(٨٧) « للارض منه خوار » أى تصبح كما تخور البقر ، لأن حوافـــر الخيل قد ألجأتها الى ذلك .

(٨٨) « الصوى » الاماكن المرتفعة التى عليها الأعلام .

(٨٩) « الحمة » عند العرب : عين يخرج منها ماء حار .

٢٤ - الا تنل « منويل » أطـــراف القنا
أو تثن عنـــه البيض وهى حـرار

٢٥ - فلقـــد تمنى أن كـــل مدينـــة
جبـــل أصـــم وكل حصـــن غـار

٢٦ - الا تفـــر فقـــد أقمت وقـــد رأت
عينـــاك قدر الحرب كيف تفـــار

٢٧ - فى حيث تستمع الهرير اذا عـــلا
وتـرى عجاج المـوت حين يثـــار

٢٨ - فانظـــر بعين شـــجاعة فلتعلمن
أن المقـــام بحيث كنت فـــرار

٢٩ - لمـــا أتتك فلـــولهم أمددتهـــم
بســـوابق العبرات وهى غـــزار

٣٠ - وضربت أمثـــال الذليل وقد تـــرى
أن غـــير ذاك النقض والامـــرار(٩٠)

٣١ - الصبر أجمـــل والقضـــاء مســـلط
فارضـــوا به والشر فيـــه خيـــار

٣٢ - هيهات جـاذبك الأعنـــة باســـل
يعطى الأســـنة كل مـا تختـــار

٣٣ - فمضى لو ان النار دونك خاضـــها
بالســـيف الا أن تـكون النـــار

٣٤ - حتى بؤوب الحق وهـــو المشـــتفى
منـــكم ومـــا للدين فيـــكم ثـــار (٩١)

٣٥ - للـــه در أبى ســـعيد انـــه
للضيف محض ليس فيـــه ســـمار(٩٢)

---

(٩٠) « النقض والامرار » جعلهما كناية عن ادارة الحرب .

(٩١) « الحق » يقصد به الاسلام ...

(٩٢) « السمار » اللبن المذوق الذى أكثر ماؤه حتى يغلب على اللبن ، الضيف ، منويلة والروم .

٣٦ - لما حللت الثغر أصبح عاليا
للروم من ذاك الجوار جوار

٣٧ - واستيقنوا اذ جاش بحرك وارتقى
ذاك الزئير وغز ذاك الزار(٩٣)

٣٨ - أن لست نعم الجار للسنن الأولى
الا اذا ما كنت بئس الجار

٣٩ - يقظ يخاف المشركون شذاته
متواضع يعفو له الجبار

٤٠ - ذلل ركائبة اذا ما استأخرت
أسفاره فهمومه أسفار

٤١ - يسرى اذا سرت الهموم كأنه
نجم الدجى ويغير حين يغار

٤٢ - سمقت به أعراقه فى معشر
قطب الوغى نصب لهم ودوار

٤٣ - لا يأسفون اذا هم سمنت لهم
أحسابهم أن تهزل الأعمار

٤٤ - مثبهم فى غرسه أنصاره
عند النزال كأنهم أنصار(٩٤)

٤٥ - لفظ لأخلاق التجار وانهم
لغدا بما ادخروا له لتجار

٤٦ - ومجربون سقاهم من بأسه
فاذا لقوا فكأنهم أغمار(٩٥)

٤٧ - عكف بجذل للطعان لقاؤه
خطر اذا خطر القنا الخطار

---

(٩٣) « الزار » جمع « زارة » وهى الأجمة ...

(٩٤) « متبهم » يجب أن يكون من البهمة ، وهى الأمر الذى لا يدرى كيف يؤتى له .

(٩٥) « سقاهم من بأسه » أى ركب فيهم من طبعه .

٤٨ - والبيض تعلم أن دينـــا لم يضـــع
مذ ســـلهن ولا أضـــيع ذمـــار

٤٩ - واذا القسي العوج طـارت نبلهـــا
ســـوم الجـــراد يسيح حين يطـــار

٥٠ - ضـــمنت لـــه أعجاســـها وتكفلت
أوتـــارها أن تنقض الأوتـــار(٩٦)

٥١ - فدعـوا الطريق بنى الطريق لعـــالم
أنى يقـــاد الجحفـــل الجـــرار

٥٢ - لو ان أيديكـــم طـــوال قصـــرت
عنه فكيف تكون وهى قصـــار

٥٣ - هو كوكب الاســـلام أية ظلمـــة
يخـــرق فمخ الكفر فيهـــا رار(٩٧)

٥٤ - غادرت أرضـــهم بخيلك فى الوغى
وكـــأن أمنعهـــا لهـــا مضـــمار

٥٥ - وأقمت فيهـــا وادعـــا متمهـــلا
حتـــى ظننـــا أنهـــا لـــك دار

٥٦ - بالملك عنك رضا وجابـــر عظمـــه
أرضى وبالدنيا عليـــك قـــرار

٥٧ - وأرى الرياض حوامـــلا ومطافـــلا
مذ كنت فيهـــا والســـحاب عشـــار(٩٨)

---

(٩٦) أعجاسها : جمع عجس ، وهو حيث يقبض الرامى من القوس ، « الاوتار » الاولى جمع وتر القوس ، و « الأوتار » الثانية جمع وتر من الذحل .

(٩٧) استعار للكفر مخا وجعله رارا أى ذائبا مثل مخ المهزول .

(٩٨) « حواملا » أى أنوارها وأثمارها ، والمطفل : التى معها ولدها ، والعشار : أصله ما أتى عليه عشرة أشهر من النوق الحوامل ، ويقال لها بعد أن تضع عشار .

٥٨ - أيامنـــا مصـــقولة أطرافهـــــا
بـــك والليالى كلهـــــا أســـحار

٥٩ - تنـــدى عفـــاتك للعفاة وتغتـــدى
رفقـــــا الـــى زوارك الـــزوار(٩٩)

٦٠ - هممى معلقـــة عليـــك رقابهـــا
مغلولـــــة ان الوفـــاء اســـــار

٦١ - ومودتـــى لك لا تعـــــار بلى اذا
ما كان تامور الفـــؤاد يعـــــار(١٠٠)

٦٢ - والنـــاس غيرك ما تغير حبـــوتى
لفراقهم هـــل أنجـــدوا أو غاروا(١٠١)

٦٣ - ولذاك شعرى فيك قد ســـمعوا به
سـحر وأشـــعارى لهم أشـــــعار

٦٤ - فاسلم ولا ينفك يحظـــوك الـــردى
فينـــا وتســـقط دونـــك الأقـــدار(١٠٢)

هذه القصيدة قالها أبو تمام فى مدح أبى سعيد الثغرى وهى ليست من قصائده المشهورة التى حظيت بالشرح والتفصيل وكما هو معلوم فان لأبى تمام فى حسن الابتداء القدح المعلى فى زمانه فقد كان - كما يقول ابن رشيق - فخم الابتداء له روعة وعليه أبهة (١٠٣) وفاتحة هـــذه القصيدة سار فيها على نهج العرب الأوائل فبدأها بذكر الديـار والدمن والآثار يشكو فيها ويبكى .... وهى فاتحة صيغت من ألفاظ ذات رقة ينساب منها لجين شجى ومضمون ثرى يستبقى السامع بل يأسره كيمـا

---

(٩٩) أى يسأل من جاءك سائلا ، ويزار من زارك .

(١٠٠) ثامور الفؤاد » دم القلب ..

(١٠١) المعنى : أنك معتمدى دون غيرك فما أحفل بأحد من الناس الا بك .

(١٠٢) أى الحوادث التى تكره تكون دونك ، ولا تكون عليك .

(١٠٣) ينظر « العمدة » ١/٢٣١ .

يقف على ما كان وما سيكون ، فينطلق القصيد وقد أمن نفرة السامع وغائلة الملل .

ومما أعان هذه الفاتحة على ذلك اقامة القصيدة على أنغام تتماوج بين شطآن بحر الكامل « متفاعلن ـ ست مرات » وهو بحر تتعدد فيه الحركات تعددا لم يجتمع لغيره ـ كما يقول أحد الباحثين (١٠٤) ـ ففى كل بيت ثلاثون حركة ، وتوالى الحركات يحدث ضربا من التوقيع الموحى بتدفق حركات النفس الشاعرة ، ومن ثم كان هذا البحر من البحور التى تتجاوب مع كثير من أغراض الشعر على اختلاف أزمنة ومذاهبه . المهم أن اتساع المدى النغمى لهذا البحر « ست تفعيلات » كان ذا عون للشاعر على أن يسبح فى عالم الشعر ، وكان اختياره للقافية ذا دقة حيث كان الروى حرف الراء المضموم المسبوق بالألف ، وفى الألف امتداد ينزع من سكون الصوت الناجم عن سكون الجهاز الصوتى فاذا ما تلاه الراء وهو حرف قد اجتمع له ما لم يتجمع لغيره من الحروف فلا هو بالرخو ولا بالشديد ولكنه المتوسط توسطا يعينه على أن يتجاوب مع كثير من دقائق الفكر ورقائق الشعور وهو حرف منفتح ، وفضلا عن هذا كله هو الحرف المكرر ولا سواه ، والمكرر ـ كما يقولون ـ « اذا وقفت عليه رأيت طرف اللسان يتعثر بما فيه من التكرير » (١٠٥) ، هذا التكرير فى صحبة الانفتاح يمثل هبوب العاصفة ، ويمثل ما قبله من سكون الألف السكون الذى يسبق العاصفة التى لا تهدأ ، ومما يعين على ذلك علامة الاعراب على حرف الروى « الضمة » وهى أقوى علامات الاعراب الأصلية من حيث خصائصها الصوتية .

الذى نراه أن اختيار هذا البحر وتلك القافية وهذا الروى يصور لنا جانبا مما يعتمل فى نفس الشاعر من أحاسيس ومشاعر ، وهذا الانسجام الصوتى الذى أقيمت عليه القصيدة أعان الفاتحة على أن يتوفر لها

---

(١٠٤) ينظر « عروض الشعر العربى » للدكتور / أمين سالم ص ٧٧ .
(١٠٥) ينظر « سر الصناعة » لابن جنى ١/٧٢ .

حسن السبك بنوعيه : السبك الصوتى ، والسبك الدلالى ، فيضفى على حسن الابتداء انسجاما يعده أهل البديع من أفراده ويوضحونه بقولهم هو « أن يأتى لخلوه من العقادة كانسجام الماء فى انحداره ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة الفاظه أن يسيل رقه » (١٠٦) .

وعندما نعيد التامل فى ابتداء هذه القصيدة نجد أبا تمام يقيم البيت الاول على تحقيق ما حل به وبالحبيبه وديارها فلا هى هى ولا الديار ديار ، فكل ما حوله استحال على غير معهوده ، وذلك أقصى ما يأخذ بناصية العاشق فينسكب لحنا شجيا ، وينساب نغما موقعا على أوتار قيثارة الذكرى .

ويأتى الشطر الثانى من البيت الأول « خف الهوى ..... » فيكشف عن مثير ما استحال اليه الحبيب وديارة ، فالهوى الذى كان المستقر فلا يزول ولا يحول قد خف فلا يكاد يكون منه شىء ، وفى اختيار كلمة « خف » دقة أعانته على حسن تصوير ما كان عليه الهوى أولا وما استحال اليه آخرا ، فهو وان كان لفظه « هوى » يشى بخفته فحقيقته أنه فى قلوب العاشقين أرسى من الجبال الشم ، فالجانب الظاهر من العبارة « خف الهوى » تناسب شكلى محسوس يستر من تحته مفارقة بديعة بين ما تقتضيه طبيعة الهوى العسقى وما يعطيه ظاهر لفظه ، وتلك المفارقة لون من ألوان الحبك الدلالى فى بناء العبارة ونظمها ، وهى تمثل الأس الرئيسى من فلسفة أبى تمام الابداعية ، بل هى روح هذه الفلسفة .

ثم يأتى قوله « وتولت الأوطار » ليوحى باختيار قوله « تولت » وفى الوزن التكوينى « تفعلت » بعظيم المعاناة والفاعلية فى وجود الحدث « التولى » مع اسناده الى الأوطار « جمع وطرأى الحاجة » وكان كل

---

(١٠٦) ينظر « خزانة الادب » لابن حجة الحموى ص ١٩٠ .

ما ينزع اليه قد تولى بذاته ، وبالغ فى ذلك التولى فلم يبق له عند المحبوبة ولا فى ديارها وطر ، وان استحالت تلك الديار الى طلل .

وبهذا نرى ارتكاز البيت الاول على معنى التحول والاستحالة ، ثم يأتى البيتان الثانى والثالث مصورين ما كانت عليه مجاورة تلك الديار وما استحالت اليه بعدها :

كانت مجاورة الطلسول وأهلهـا
زمنـا عذاب الورد فهى بحـار
أيـام تدمى عينـه تلك الدمى
فيهـا وتقمـر لبـه الأقمـار

تصوير لما كان فيه من نعيم الورد بحضورهن وما استحال اليه بعد فراقهن أعانة عليه ذلك الطباق الثرى « المفارقة » بين عذاب وبحار .

أمران يستحضر نطق اللسان بهما فى الحلق قسوة المفارقة بين ما كان وما هو كائن ، وما أقسى اجتماع العذوبة والملوحة فى فم العاشقين ، ثم ما يشى به التعبير بكلمة « ورد » وكلمة « بحار » من مفارقة بين المصيرين ، فهذا « الورد » يصدر المرء فيه ذارى وسلامة ، وذلك « بحار » لارى ولا سلامة ، ثم هذا التفاعل والانسجام الصوتى بين « تدمى ـ الدمى » وهو ما يسمى بالجناس ، والمفارقة بين هوان « الدمى » وحقارتها من حيث هى ، وقسوة أثرها فى الأحباب «تدمى». انسجام صوتى ومفارقة دلالية يعلى تفاعلهما من متانة الحبك والنسج فى الصنعة الشعرية عند أبى تمام .

ولم يشأ أن يتخلى عن الاستغراق فى بناء فاتحة قصيدته على المفارقة فأتى بالبيت الرابع منها وقد تجلت هذه المفارقة تجليا لافتا فقال :

اذ لا صدوف ولا كنود اسماهما كالمعنيين ولا نوار نوار

تعبيره بهذه الأسماء « صدوف ـ كنود ـ نوار » فى فاتحة القصيدة قد يعطى ظاهره أنه خارج عما ارتضاه نقدة الشعر واستحسنوا أن يختار الشاعر فى فاتحته من أسماء النساء فى الغزل نحو : « سعاد ، وأمام ، وفوز » وما يجرى هذا المجرى ، ومن ثم عيب على الأخطل تغزله باسم « قذور » وهى امرأة كان يحبها فانه مستقبح الذكر ـ كما يقول ابن الاثير ـ وأمثال هذه الاشياء تجب مراعاتها عندهم (١٠٧) وعليه يكون استخدام أبى تمام « صدوف ، وكنود ، ونوار » فى ظاهره معيبا غير أن تدقيق النظر ولحظ روح الفلسفة الابداعية التى ينتهجها تدفع ذلك ، انه أراد أن يشير الى تلك المفارقة بين ما توحى به أسماء محبوباته فى تلك الديار من صدوف ونكد ووحشه وماكن عليه حين كان يجاور أوطانهن ، لم تكن أخلاقهن وعلائقهن به ـ حينذاك ـ مستمدة من أسمائهن ، فكأنهن اتخذن من أسمائهن هذه ستارا كثيفا بل حجازا مانعا يخفى من ورائه ما هن عليه من اقبال وبر وأنس بأحبابهن فى أوطان كان الحديث لذى الصبا ممتهنا وكانت الأسرار حصينة ، وفى بيئة كانت القتادة فيها ذات ثمر ، وهى أبخل أيكة ، « وذلك ما يوضحه حديثه حتى البيت السابع من القصيدة » .

مفارقات عدة فى تلك الأوطان وتلك الأحوال التى كان يقيم فيها أبو تمام تشاكلها مفارقات أشد بين ما كان عليه حينذاك وما هو عليه من قبل مقدمه على ممدوحه .

وهكذا يقيم فاتحة القصيدة على هذا المرتكز الذى سنرى مدى انسجامه مع موضوع القصيدة كلها ، وحتى تتجلى تلك العلاقة تنظر فى حسن تخلصه من هذه الفاتحة الى موضوع القصيدة « مدح أبى سعيد » وهو فى قصيدته التى بين أيدينا يسلك من مسالك التخلص مسلكا قد

---

(١٠٧) ينظر « الجامع الكبير » لابن الاثير ص ١٩٠ تحقيق مصطفى جواد ، وجميل سعيد ـ طبعة المجمع العلمى بالعراق ١٣٧٥ هـ .

لا تتراءى معالمه الا لمن دقق النظر ، فهو - كما سبق - أقام فاتحة مدحته لأبى سعيد على مرتكز المفارقة بين ما كان عليه كل شىء فى حياته وما صار اليه كل شىء فيها وأعلاها حال الحبيبه فلا هى هى ولا الديار ديار ، وبينا هو غارق فى المعاناة من هذه المفارقات اذ باخبار الممدوح قد صرحت عن محضها فتغير الحال ، فعم الأمصار استبشار بفتحه وجلا صدأ القلوب من جراء تلك المفارقات ضياء خبر الممدوح .

اخبار انتزعته مما هو فيه غارق فلم يكن بد من الخضوع لسلطانها والعيش فى رحابها ، وبهذا تخلص أبو تمام مما كان فيه من وعثاء الأحوال الى ضياء الأخبار التى شمر عن ساعده وامتشق يراعه لتسجيلها وهكذا يدخل أبو تمام عالم الممدوح بعد أن عاش عالم التحولات القاسية فنراه لا يدع منهج المطابقة الذى هو محور المفارقة حين تمتد فاعليتها فلا تكون بين عنصرين « كلمتين » بل تمتد فتتناول مقدمة القصيدة وموضوعها :

٧ - قد صرحت عن محضها الأخبار
واسبشرت بفتوحك الأمصار

٨ - خبر جلا صدأ القلوب ضياؤه
اذ لاح أن الصدق منه نهار

٩ - لولا جلاد أبى سعيد لم يزل
للثغر صدر ما عليه صدار

ويبقى أبو تمام فى رحاب مدح أبى سعيد الثغرى بما فعله فى فتوحاته وما أنزله بأعداء الاسلام بقاء يطول فيه نفسه لا يكاد يلتفت عن تلك الغاية وكأنها آخذة بعنانه ، وكأن تكاثر ما صنعت يد أبى سعيد فى فتوحاته لم يدع لأبى تمام منصرفا عن القول فاطال القصيد ، وكان فى ذلك ضرب من المشاكلة بين طول مقام أبى تمام فى تدبيج بديع القول فى شجاعة وبطولات أبى سعيد الثغرى وطول مقام ممدوحه « أبى

سعيد » فى تلك البلاد التى فتحها ، وهو ما يشير اليه قوله :

٥٤ - غادرت أرضهم بخيلك فى الوغى
وكان أمنعها لها مضمار

٥٥ - وأقمت فيها وادعا متمهلا
حتى ظننا أنها لك دار

٥٦ - بالملك عنك رضا وجابر عظمه
أرضى وبالدنيا عليك قرار

وفى هذا ايماء الى أن أبا تمام يحاول أن ينهى القول فى شجاعة أبى سعيد وفتوحاته فيهتف قائلا :

٦٠ - هممى معلقة عليك رقابها
مغلولة ان الوفاء استار

٦١ - ومودتى لك لا تعار بلى اذا
ما كان تامور الفؤاد يعار

٦٢ - والناس غيرك ما تغير حبوتى
لفراقهم هل انجدوا أو غاروا

٦٣ - ولذاك شعرى فيك قد سمعوا به
سحر وأشعارى لهم أشعار

٦٤ - فاسلم ولا ينفك يخطوك الردى
فينا وتسقط دونك الأقدار

ومن يتأمل فى ختام هذه القصيدة يجده ختاما مؤذنا بانتهاء القول وختمه وكان ختما جامعا لآيات المديح فى أبى سعيد الثغرى فقد أعلن أن شعره فيه سحر ولغيره أشعار ، ثم يدعو بالسلامة لممدوحه الدهر فلا ينفك يخطوه الردى ولا ينفك تسقط دونه الحوادث والاقدار ولا تكون عليه .

دعاء سكبه أبو تمام فى خاتمة القصيدة فيبقى الكون يردده ما بقيت آيات مجد الممدوح ، ومن ثم كان هذا من أحسن الختم فقد آذن بانتهاء الكلام حيث لم يبق للنفس تشوق الى ما وراءه ، وما قاله أبو تمام هنا يشبه القول الذى عده البلاغيون من أحسن الختم :

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله وهذا دعاء للبرية شامل (١٠٨)

هذه قصيدة متكاملة قد أبنا فيها مكانة حسن الابتداء والتخلص والانتهاء (١٠٩) واذا كنا قد توقفنا عند قصيدة واحدة فاننا نذكر أن المصادر والمراجع البلاغية والنقدية فيها الكثير والكثير من مواقف العلماء استحسانا واستهجانا لفواتح وتخلصات وانتهاءات أبى تمام وغيره لم نشأ أن نرصدها هنا فما هى من العارفين ببعيد ، فضلا عن العزوف عن البسط والاطالة كيما نعمد الى أمر ذى بال هو أجدى من ذلك ألا وهو تبيان علاقة التأنق فى المواطن الثلاثة الآنفة بما يسمى بوحدة القصيدة .

ثالثا : علاقة التأنق بوحدة القصيدة :

اذا ما كان البلاغيون والنقاد قد جعلوا من محاسن القصيد أن يجمع بين حسن الابتداء وحسن التخلص وحسن الانتهاء أفيعنى ذلك أنهم يريدون بذلك أو يشيرون به مجرد اشارة الى ما يسميه النقد الحديث بالوحدة العضوية للقصيدة التى يعلن العقاد عنها بقوله (١١٠) :

« ان القصيدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيه تصوير خاطر أو خواطر متجانسه كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها ،

---

(١٠٨) ينظر « بغية الايضاح » ١٥٨/٤ ، و « شروح التلخيص ٥٤٤/٤ و « المطول » ص ٤٨٢ ، و « الأطول » ٢٦٠/٢ .

(١٠٩) من المراجع التى أفدنا منها فى التحليل « أبو تمام وقضية التجديد فى الشعر » للدكتور /عبده بدوى .

(١١٠) ينظر « الديوان » للعقاد والمازنى ص ١٣٠ - طبعة «٣» - دار الشعب .

واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث اذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره فى موضعه الا كما تغنى الأذن عن العين ، أو القدم عن الكف ، أو القلب عن المعدة ، أو هى كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها ولا قوام لفن بغير ذلك » .

ولعل هذا الكلام من العقاد منقول عن بعض نقده العرب فقد جاء فى العمدة لابن رشيق :

« وقال الحاتمى : من حكم النسيب الذى يفتتح به الشاعر كلامه ان يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم ، متصلا به ، غير منفصل عنه ، فان القصيدة مثلهامثل خلق الانسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه ، وتعفى معالم جماله ، ووجدت حذاق الشعراء وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون عن مثل هذه الحال احتراسا يحميهم من شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الاحسان » (١١١) .

فهذا النص الذى ذكره الحاتمى ونقله عنه ابن رشيق يشبه القصيدة بجسم الانسان ولكنه - فى نظرى - لا يقصد « الوحدة العضوية » كما يفهمها النقد الحديث . وانما يقصد تلاحم أجزاء القصيدة وتعلق بعضها ببعض كأنما أفرغت افراغا ولعل هذا ما أشار اليه ابن سنان الخفاجى حين قال :

« ومن الصحة صحة النسق والنظم ، وهو أن يستمر فى المعنى الواحد واذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص اليه حتى يكون

---

(١١١) ينظر « العمدة » لابن رشيق ١١٧/٢ .

متعلقا بالاول وغير منقطع عنه ومن هذا الباب خروج الشعراء من النسيب الى المدح ، فان المحدثين أجادوا التخلص حتى صار كلامهم فى النسيب متعلقا بكلامهم فى المدح لا ينقطع » (١١٢) .

الحق أن البلاغيين - فى نظرى - لا يريدون بالدعوة الى التأنق فى حسن الابتداء حتى يدل على مضمون القصيدة ، وفى حسن التخلص حتى يأخذ الكلام بحجز بعضه فيفرغ افراغا ، وفى حسن الختام حتى يؤذن بانتهاء الكلام ، لا يريدون بذلك القول بالوحدة العضوية أو الموضوعية لدى النقاد المحدثين .

ان موقف البلاغيين - فى نظرى - لا يعطى أكثر من الدعوة الى أن ترتبط أجزاء النص ارتباطا وثيقا فيسلم كل بيت فيها الى ما بعده فكرا وشعورا ، ولعل هذا ما عناه المرزوقى فى الباب الخامس من عمود الشعر فأسماه « التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن » والنظر فى عيار هذا الالتحام يوضح تلك الحقيقة ، يقول المرزوقى : « وعيار التحام أجزاء النظم والتئامه على تخير من لذيذ الوزن ، الطبع واللسان ، فما لم يتعثر الطبع بأبنيته وعقوده ، ولم يتحبس اللسان فى فصوله ووصوله ، بل استمرا فيه واستسهلاه ، بلا ملال ولا كلال ، فذاك يوشك أن يكون القصيدة منه كالبيت ، والبيت كالكلمة تسالما لاجزائه وتقارنا .....

وانما قلنا « على تخير من لذيذ الوزن » لان لذيذة يطرب الطبع لايقاعه ، ويمازجه بصفائه ، كما يطرب الفهم لصواب تركيبه ، واعتدال نظومه » (١١٣) .

---

(١١٢) ينظر « سر الفصاحة » ص ٢٥٩ تصحيح عبد المتعال الصعيدى - طبعة صبيح .

(١١٣) ينظر شرح المرزوقى للحماسة « المقدمة » ١/١٠ تحقيق أحمد أمين ، وعبد السلام هارون - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الثانية .

المرزوقى لا يكتفى بالتحام أجزاء النظم والتئامها بل ينبغى عنده أن يكون ذلك مصحوبا بتخير الوزن اللذيذ ، فنحن بين أمرين فى حياطة الوزن : « الالتحام والالتئام » أما الالتحام فانه يكون بين شيئين وان تغايرا ، وأما الالتئام فلا يكون الا بين متجانسين .

فلعل المرزوقى اراد بالالتحام ما يكون بين المعانى المتغايرة والتى ليست من واد واحد ، والموضوعات المتعددة كالغزل والمدح .... وما يكون بين البيت والبيت أو المقطوعة والمقطوعة .

أما الالتئام فلعله يريد به ما يكون بين عناصر البيت الواحد او الفقرة الواحدة حين تتجانس فيها المعانى والاغراض .

وهو - بهذا الفهم - يكون متناولا ما كان من القصيد متعدد المعانى والاغراض الصغرى فى محيط دائرة غرض عام تكون بعضها كالمقدمات وبعضها الآخر هو موضوعها وبعضها خاتمة له ، كل هذا يتلاحم فى أحكام يلحظه الطبع فلا يتعثر بابنيته وعقوده .

فالأبنية للالتحام ، والعقود للالتحام مع وزن لذيذ يطلق عقال اللسان فلا يحبس فى فصوله ووصوله .

بهذا الالتحام والالتئام فى المضمون والانسجام فى الوزن اللذيذ يكاد يتحقق للقصيدة أن تكون كالبيت وان اختلفت فصولها وعقولها الا أنها ذات التحام محكم ، ويكون البيت وان اختلفت كلماته وعناصره كالكلمة الواحدة ، فاذا القصيدة كانها افرغت افراغا .

ولعل هذا ما أشار اليه الامام عبد القاهر فى فصل فى النظم يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع من « أن تتحد اجزاء الكلام ويدخل بعضها فى بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، وان تحتاج فى الجملة الى أن تضعها فى النفس وضعا واحدا ، وان يكون حالك فيها حال البانى

يضع بيمينه ها هنا فى حال ما يضع بيساره هناك . نعم ، وفى حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الاولين . وليس لما شأنه أن يجىء على هذا الوصف حد يحصره ، وقانون يحيط به ، فانه يجىء على وجوه شتى ، وأنحاء مختلفة » (١١٤) .

ولسنا بالزاعمين بهذا أن البلاغيين والنقاد قائلين بما يسميه النقد الحديث بالوحدة العضوية فى القصيدة لامور منها :

أنهم لا يرفضون تعدد الموضوعات والاغراض الجزئية فى محيط الغرض الأعظم ، فهم ينزعون الى ما يسمى « الوحدة فى تنوع » وان لم يستخدموا المصطلح ذاته ، ولا يقولون أيضا بوحدة الجو النفسى للقصيدة الواحدة لان ذلك لا يتلاءم مع طبيعة تعدد الموضوعات والاغراض الجزئية. أضف الى ذلك أن القائلين من المحدثين بالوحدة العضوية لم يستطيعوا تحقيقها لانها أمر مثالى غير متحقق ، وقد صرح بهذا بعض الباحثين فقال :

« ان المطالبة بالوحدة العضوية لا تكون الا فى فنون الادب الموضوعى كفن المسرحية وفن القصة والأقصوصة ، وأما فى شعر القصائد فلا ينبغى أن يطالب بها الا فى الشعر الموضوعى ذى الطابع الواقعى الذى تنبنى القصيدة فيه كما قلنا على قصة قصيرة ، أو دراما سريعة ، وأما الشعر الغنائى الخالص أى شعر الوجدان فمن أكبر التعسف مطالبة الشاعر بمثل تلك الوحدة التى لا تقبل تقديما أو تأخيرا فى نسق أبياتها » (١١٥) .

« وبعد »

فان هذا البحث يوضح - من وجهة نظر الباحث - أن البلاغيين والنقاد حين يذهبون الى الاعتناء بهذه الاشياء الثلاثة « حسن الابتداء ، وحسن التخلص ، وحسن الانتهاء » لا يطمحون الى ما يسمى بالوحدة

---

(١١٤) « دلائل الاعجاز » ص ٩٣ تحقيق/محمود شاكر .
(١١٥) النقد والعقاد والمعاصرون للدكتور محمد مندور ص ١١٨ .

العضوية فى النقد الحديث بل الى تنظيم أجزاء القصيدة تنظيما يعتمد على التسلسل والتدرج الفكرى والشعورى دون نكوص او انتقال مفاجىء بحدث فجوة فكرية أو شعرية ، وذلك يتحقق جليا فى قصيدة أبى تمام التى اتخذناها كنموذج يدل على ان الشاعر العربى كان يتصور عمله وحدة متصلة الاجزاء ، يسلم الواحد منها الى صاحبه ، ويتقدم بعضها بعضا ، فالمقدمة تتقابل مع الموضوع والختام يؤذن بانتهاء الكلام وبذلك يتحقق للقصيدة العربية وجودها وتفردها .

ومن هنا فان أى اتهام يوجه الى القصيدة العربية هو اتهام ظالم ولا أساس له ولينظر صاحب هذا الاتهام الى ما قرره ابن قتيبه فى الشعر والشعراء حين قال :

« سمعت بعض أهل الادب يذكر أن مقصد القصيد انما ابتدأ فيها بالديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين « عنها » ، اذ كان نازلة العمد فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ..... ثم وصل ذلك بالنسيب ..... ليميل نحوه القلوب ، ويصرف اليه الوجوه ..... فاذا علم أنه قد استوثق من الاصغاء اليه ، والاستماع له ، عقب بايجاب الحقوق ..... فاذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ..... بدا فى المديح ، فبعثه على المكافأة وهزه للسماح ، وفضله على الأشباه ، وصغر فى قدره الجزيل .

فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيه فيمل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ الى المزيد » (١١٦) .

---

(١١٦) ينظر « الشعر والشعراء » لابن قتيبه ١/٨٠ تحقيق / أحمد محمد شاكر ـ الطبعة الثالثة ١٩٧٧ م .

فهذا النص من ابن قتيبه يدل دلالة قاطعة على أن الشاعر العربى كان يعتقد أن قصيدته وحدة متصلة الاجزاء ويقـــوم بترتيبها الترتيب اللائق بها الذى يحميها من أن تكون أخلاطا متفرقة لا توافق بينهـــا ولا انسجام .

وهذا هو ما يهدف اليه هذا البحث .

والله هو الهادى الى سواء السبيل